# العشاء الأخير

كل الوجوه التي تصافحها عيناك، تحمل نفس الهموم التي حفرتها الفاقة على قسمات وجهك !! وأنت تجوب الأزقة وحواري قاهرة المعز، بحثا عن رزقك، وأنت تحمل على ظهرك حجر المسن تنادي بصوت بُحَّتْ نبراته من أثر السنين وعامل الزمن الذي أرهق كاهلك : «أسن السكينة والمقص»

لست وحدك الذي يحمل معاناته على ظهره، ويتجول في دروب البلدة سعياً وراء رزقه، البؤس القابع خلف النظرة المستكينة حفر أخاديده على الوجوه، وانطفأ بريق بهجة العيون وانزوت لمعة الفرحة المطلة في شغف على خبرٍ سعيد، يحيي فيها الأمل، ويعيد لها البهجة التي اختفت من روحهم منذ أعوام بعيدة قد مضت !! شظف الحياة يدفعك كي تتحمل أوجاعك الناجمة من الوقوف في

طوابـيرٍ طويلـة، للفـوز ببضـع أرغفـةٍ رديئـة .. تحملهـا لصغارك الجوعـى لتسـد بهـا رمقهـم، ويناموا عـلى غـدٍ يحمـل عـلى يـده أمـلاً براقـاً لحيـاة أفضـل !!

لم تعـد قدمـاك المنهكتـان مـن طـول سـعيك الـدءوب وراء لقمـة عيشـك، تتحمـل كل هـذا الجهـد مـن أجـل بضـع جنيهـاتٍ زهيـدة، وأنـت تنـادي بصوتـك المجهـد :

« أسن السكينة والمقص»

لسـت وحـدك الـذي تطويـه غيمـة الليـل ليكمـل عشـاه نومـاَ !! عندمـا تعلـن الشـمس انسـحابها مـن الكـون، أذنـاً لليـل بالدخـول ليرخـي بردتـه السرمديـة السـوداء عـلى الكـون، وزوال النهـار، منبئـاَ كل الكائنـات بـأن تـأوي إلى خدرهـا كـي تنعـم بالراحـة بعـد عمـل يـوم شـاق، فيأويـك الليـل في حجـرة متواضعـة مخوخـة الجـدار، وتكثـر فيهـا الـشروخ، ويطـل مـن فراشـها المبقـور الأحشـاء والبـالي الفـراش ومأسـاة زوجـة تلبسـها المـرض والفاقـة التـي تخفيهـا في نظـرة وضـاءة، وشـفاه حامـدة بنعمـة الحيـاة !! ترفـع عـن كاهلـك حجـر المسـن وتضعـه في ركنـه الأبـدي خلـف البـاب، ونظراتـك المشـفقة عليهـا تشـكرها في صمـت، ترمـي بجسـدك المنهـك فـوق الأريكـة طلبـاً للراحـة مـن عنـاء يـوم مجهـدٍ، تتنهـد في التيـاع، وتخـرج مـن فمـك زفـرة صهـد وربـح هـذا اليـوم الزهيـد :»عـلى التعـب واللـف دا كلـه، ومـش جايبـه همهـا !!«

« أحمد ربك يا حامد، وبوس أيدك وش وضهر على متعة الحياة !!»

يرفع أبنك البكري وجهه المتشحم من أثر عمله في ورشة الميكانيكا الذي ألحقته بها . ليعينك على أعباء الحياة، ويتندر على جملة أمه ساخراً :

« وهي فين المتعة دي يا ماه ؟!!»

« في بدنك وعفيتك يا حبيبي، وطول ما هو ربنا مديك الصحة، مش ها تنضام في حياتك، وح تبقى في أحسن حال، وخدها مني حكمة لا الفقير بيفضل على حاله، ولا الغني بيفضل متنعم بغناه ؟!! ويلا شد الطبلية من تحت السرير، وكل واتهني واشكر ربك»

وأنت تنظر إلى أيدي صغارك الأربعة، وهي تتسابق للفوز بهذا الطعام الزهيد، تزفر في ألم، وتتحسر على تلك الأيام الخوالي التي كانت قروشك القليلة التي تربحها من مهنتك تستر عزة نفسك، وتسد حَوّجة البيت الذي بدأ يتهاوى من الفاقة ويعلوه شحوب وجوهٍ كساها سوء التغذية، وقلة الحيلة .

لست وحدك الذي تحيا تلك الحياة المجنونة بغلو الأسعار وقلة المورد!!

لست وحدك الذي يعاني شظف العيش والحَوّجة !! ولكنك الآن وحدك في اتخاذ القرار الذي سيريحك من كل معاناتك ؟!

نعم الآن أنت وحدك الذي قررت الاعتراض على نهج الساسة، وقسوة قلوبهم المتحجرة في أن يحنوا عليك، أو ينظروا بعين الرأفة تجاه المحنة التي تعصر قلبك وتشمل أمثالك ممن يعيشون تحت خط الفقر والاحتياج، قررت أن تعري شعورهم المتبلدة تجاه كل المعدومين، بيدك وحدك سوف تضع السم في طبق العدس الذي لم يعد طبقاً للغلابة، بعدما ارتفع ثمنه ، لتتناوله مع صغارك في هذه الليلة ويكون عشاءك الأخير !!

تريح ظهرك على حائط زاوية يهرع نحوها المصلون لأداء فريضة العصر، تحط بجسدك المهدود على الرصيف، تستظل من لفح الشمس الحارقة، ترفع وجهك تجاه السماء طلباً للعفو وللمغفرة، نحو ما عزمت نفسك البائسة على الإقدام عليه !! ينساب دمعك المقهور في عذاب وندم، وأنت تسترق السمع لتلك الآيات الصادرة من مذياع الزاوية .

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ

نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ »[1]

**تزفر في التياع وأنت تقول في ضجر :**

**« ما خلوش فينا عقل يا ربي !! ما خلوش فينا عقل !! بعد ما ولعوا الدنيا من حوالينا وخلونا مش عارفين نعيش حتى على الكفاف !! أنا تعبت، تعبت، وما عدتش قادر أعيش !! أعمل أيه ؟!! أعمل أيه ؟!!»**

**تنهنه في حزنٍ بليغ، وتنداح دموعك كالمطر، يعلو شجار النفس بين قرارك بالإقدام أو الصبر على شظف العيش، وتهدهد يأسك على أمل التغير، فهل تتغير تلك السياسة، ويشعروا بمحنة البؤساء أمثالك، ويوازنون بين الدخل وبين غلاء الأسعار !! ترفع أكفك ضارعاً نحو السماء، تقنط في خشوع على قلة حيلتك، وهوانك على الناس، وأهل الرحمة يرمون في كفك قروشاً قليلة، ينداح على خدك دمع سخين، ترفع بصرك المقهور نحو خالقك وتتمتم في الم»أخرتها يا ربي أمد أيدي زي الشحاتين، وأتسول لقمتي ؟!!»**

---

١ – سورة الأنعام الآية ١٥٠

تتساءل نفسك عن كيفة الخروج من تلك المعيشة الضنك، وقسوة ما تحياه !! فلا تجد قبساً يهديك الرد على إجابة شافية !! تترقب أن تهديك النفس الأمارة بالسوء إلى حلٍ يخرجك من تلك الدوامة !! فلا تجد جواباً لتساؤلاتك الحائرة، يتراقص أمام عينيك قرارك الأخير يتأرجح بين المضي فيما عزمت عليه، وهذا التردد في قبول هذا الوضع الذي تأباه عزة نفسك، ولكنك لا ترى في مهنتك التي عفا عليها الزمن أي مخرج !! هي معاناتك التي لم تعد ترى فيها من سبيلٍ للخروج من تلك الحياة الموحشة، وعليك التأقلم على أمرَّ ما فيها وتحمد ربك تمتد يدك نحو كيس السم القابع في جيبك ويتسمر بصرك شاخصاً نحو السماء، تنتظر وتظل تنتظر أن يأتي الحسم من الله يهديك إلى الحل، وريحك من هذا العذاب !!

القاهرة : ٢٥ – ٨ – ٢٠١٠